الرواية التاريخية عند جرجي زيدان بين البعد التاريخي والبعد الجمالي

أ.د سعيد عكاشة

جامعة جيلالي ليابس- سيدي بلعباس (الجزائر)

تاريخ الارسال.2025/10/6. تاريخ القبول.2025/12/5. تاريخ النشر 2025/12/30

ملخص:

تناول المقال إبراز دور جرجي زيدان في تأسيس الرواية التاريخية العربية واستثماره هامش الحرية في مصر لصياغة مشروع نهضوي يجمع بين السرد والتاريخ. وقد قدّم زيدان التاريخ بأسلوب مبسّط يجمع بين المتعة والفائدة، معتمداً الرواية وسيلة تعليمية قبل أن تكون عملاً فنياً خالصاً. ورغم إنتاجه الغزير وتأثيره الواسع، وُجّهت إليه انتقادات حادّة لتأثره بالمناهج الاستشراقية وتشويه بعض الشخصيات التاريخية الإسلامية. كما أُخذ عليه التركيز على الصراعات السياسية وإغفال الجوانب المشرقة من التاريخ الإسلامي، إضافة إلى ضعف البناء الفني ونمطية الشخصيات. ومع ذلك، يبقى زيدان رائداً لا غنى عن ذكره في تطور السرد التاريخي العربي.

الكلمات المفتاحية: الرواية التاريخية؛ جرجي زيدان؛ البعد التاريخي؛ البعد الجمالي.

Abstract :

The text highlights the role of Jurji Zaydan in establishing the Arabic historical novel and his use of the freedom available in Egypt to shape a reformist project that combines narrative and history. Zaydan presented history in a simplified style that blends enjoyment with educational value, treating the novel primarily as a teaching tool rather than purely an artistic work. Despite his abundant output and wide influence, he faced strong criticism for adopting Orientalist approaches and for distorting certain Islamic historical figures. He was also criticized for focusing on political conflicts while overlooking the brighter aspects of Islamic history, in addition to the weakness of his artistic construction and the stereotypical nature of his characters. Nevertheless, Zaydan remains an essential pioneer in the development of the Arabic historical narrative.

Keywords: *Historical Novel; Jurji Zaydan; Historical Dimension; Aesthetic Dimension*

ص.123-131:

مقدمة:

يحتلّ جرجي زيدان موقعاً مركزياً في تاريخ النهضة العربية الحديثة، لما أحدثه من تحوّل نوعي في الكتابة التاريخية والسرد الروائي معاً. فقد جاء مشروعه الأدبي والفكري متزامناً مع التحولات الكبرى التي شهدتها القاهرة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث شكلت هذه المدينة فضاءً ثقافياً خصباً أتاح للجيل النهضوي الأول فرصاً أوسع للتعبير والإبداع، في ظل انفتاح نسبي على الأفكار الحديثة وتفاعل متزايد مع الثقافات الأوروبية. في هذا المناخ المتحرّك، وجد زيدان في الرواية التاريخية أداة مثالية لبعث التاريخ العربي والإسلامي في قالب جديد يجمع بين الدقة العلمية والجاذبية الفنية، ساعياً إلى بناء وعي حديث يعيد للمتلقي صلته بماضيه، ويجعله أكثر قدرة على فهم حاضره واستشراف مستقبله.

لقد أدرك زيدان مبكراً أنّ النهضة الفكرية لا تُبنى على إعادة اجترار ما خلّفه القدماء دون نقد أو تجديد، بل على إعادة النظر في الموروث بمنهج عقلاني يزاوج بين التحليل والسرد، بين العلم والفن. ولهذا سعى إلى كسر القوالب التقليدية التي ظلّت الكتابة التاريخية حبيسة لها، مستفيداً من ثقافته الواسعة وتعدد اهتماماته بين التاريخ واللغة والصحافة والأدب. ولم يلبث أن أصبح أشهر كاتب للرواية التاريخية في الأدب العربي، بفضل مشروعه السردي الذي تميّز بالغزارة والتنوع والقدرة على تحويل الوقائع التاريخية إلى أحداث روائية مبنية على التشويق والإثارة.

ومع ذلك، لم يَسلم زيدان من النقد، إذ وُجهّت إلى رواياته ومؤلفاته التاريخية ملاحظات عديدة، بعضها منهجي يتعلق باعتماده مصادر استشراقية وما قد يرافقها من رؤى منحازة أو مشوهة، وبعضها فني يلامس ضعف البناء الروائي واعتماد النمطية في رسم الشخصيات والتركيز على الصراعات السياسية والمظلمة من التاريخ الإسلامي. وقد أثار هذا كله سجالاً واسعاً بين من يعدّه مؤسّس الرواية التاريخية العربية بلا منازع، ومن يرى في مشروعه امتداداً للخطاب الاستشراقي الذي سعى إلى تقديم الشرق في صورة سلبية.

ورغم هذا الجدل، يظلّ لجرجي زيدان فضل لا يمكن إنكاره في إدخال الرواية التاريخية إلى الأدب العربي وتكريسها جنساً سردياً يزاوج بين التثقيف والترفيه. فهو أول من جعل الرواية جسراً يصل القارئ بتاريخ أمته بلغة سهلة وشائقة، عادّاً الفن وسيلةً لقول الحقيقة التاريخية، لا غايةً مستقلة بذاتها. ومن هنا تأتي هذه الدراسة لتفحص جهود هذا الرائد في خدمة التاريخ وتطويعه فنياً، والكشف عن البعد الجمالي والمعرفي في أعماله، وتحليل ما أثارته من انتقادات، إلى جانب دراسة أثر مشروعه في مسار تطور الرواية التاريخية العربية.

تسعى هذه الدّراسة إلى إبراز المساهمة الفعّالة الّتي نهض بها رائد من روّاد النهضة الأدبية في مصر جرجي زيدان، مستفيداً من هامش الحرية التي تمتعت به القاهرة في إرساء الحركة الأدبية الحديثة، وتأكيد التواصل المعرفي بين الحداثة ووالتراث.

ومهما قيل ويقال عن روايات جرجي زيدان من كلام فإن المستكشف لكثير من أعماله الروائية يلاحظ أن هاناع سعى الى استكشاف معالم التراث العربي والاسلامي واتخاذه رافد للحداثة ووسيلة لالتقاء الحقيقة بالخيال في صياغة ابداعية تتمثل التاريخ فنيا

ص.123-131:

،يرى أرسطو إنه بمجرد دخول الحدث التاريخي في إطار العمل الأدبي يتحول العنصر التاريخي إلى عنصر أدبي[1].

ولأجل هذا سنسعى من خلال هذا المقال إلى ولوج العلم القصصي عند جورجي زيدان وتقاطعاته الجمالية مع نصوص التاريخ ومكوناته. ذلك ان هذا الرجل كان صاحب مشروع حضاري ومعرفي يربط تاريخ الامة بحاضرها. وت

وقبل أن نستكشف تلك العلاقة بين التّأريخ والرّواية (السرد) عند جرجي زيدان، كان لزاما أن نتعرّف ولو باقتضاب عن هذا الرجل، إنّه مفكّر لبناني يعدّ رائداً من رواد تجديد علم التاريخ واللسانيات وهو دون منازع خالق الرواية التاريخية عندنا[2]، وأحد روّاد الرّواية التاريخية العربية، وعلماً من أعلام النهضة الصحفية والأدبية في العالم العربي، وهو من أخصب مؤلّفي العصر الحديث إنتاجاً، وهو بالإضافة إلى غزارة إنتاجه كان متنوعاً في موضوعاته حيث ألّف في الكثير من الحقول المعرفية كالتاريخ والجغرافيا والأدب واللّغة حتى قال عنه طه حسين هو الذي نقل إلى الأدب العربي مذهبا من مذاهب الأدب الأوروبي[3].

والمتأمّل لكتابات جرجي زيدان التاريخية يلاحظ أنّها جاءت لتتجاوز الطرح الكلاسيكي الذي كان قائماً على اجترار مناهج القدامى ورواياتهم في التاريخ دون تجديد وإعمال العقل والنّقد.

لكن في الحقيقة طرحه هذا لم يتجاوز فكرة التمركز حول الغرب الحداثي، حيث قرأ التاريخ العربي والإسلامي من منظور استعماري كولونيالي، فتأثر ت كتاباته بمناهج

المستشرقين بما تحمله من نزعة عنصرية في رواياتها للشرق تلك النزعة التي وضحها جلياً المفكر الفلسطيني إدوار سعيد في كتابه الاستشراق.

وفي ظل هذا السياق التاريخي العام ظهر مشروع جورجي زيدان متعدد الأبعاد غايته طرح أسئلة حول النهضة والحداثة وهو تصوّر مغاير لما يفترضه المصلحون المسلمون من سبل لتحقيق النّهضة.

إنّ صلة جرجي زيدان بحقل التاريخ تبدأ بدراسته الأولى حول فقه اللّغة المقارن وتحمل عنوان فلسفة اللغة الربية، وتتصل بلهجات العربية منذ القدم وعلاقة أنساقها الأدائية (الاستخدام اللغوي) بغيرها من اللغات القريبة، ثم بدأ يتطور الأمر ليصبح حقل التاريخ مسافة أفقية في أنشطته التأليفية وذلك من خلال المؤلفات التالية:

1) تاريخ التمدن الإسلامي.
2) تاريخ اليونان والرومان- خلاصة تاريخ دولتي اليونان والرومان مع التأريخ لعاداتهم وطبائعهم وعلومهم.
3) طبقات الأمم - السلائل البشرية- كتاب علمي طبيعي اجتماعي.
4) تاريخ أدب اللغة العربية.

وهو في هذا الأخير يشترك مع بعض المؤلفين في دراسة الأدب العربي من العصر الجاهلي إلى ما بعده من العصور ومن هذه المؤلفات:

- المستشرق الألماني بروكلمان- تاريخ الأدب العربي.
- مصطفى صادق الرافعي- تاريخ آداب العرب.

- شوقي ضيف- تاريخ الأدب العربي.

إذن جرجي زيدان من هذه الناحية يعد حلقة من سلسلة أو حبة في عقد أو عضو في أسرة تمرَّس أصحابها في هذا الحقل.

كتب جورجي زيدان ما ما يفول 17 عشر رواية علجت تاريخ العرب والمسلميين وشملت امما كثيرة ولقت في وقتها اهتماما كبيرا من قبل النقاد والذدارسسين لما اشتملت عليه من قيم فنية وجمالية وما انطوت عليه من اساليب مثيرة للمتعة والجمال.

لقيت هذه الأعمال الروائية رواجاً شعبياً هائلاً وترجمت إلى الفارسية والتركية والأذربيجانية والفرنسية والانجليزية[4]. وتنحصر أهمية هذه الروايات أنّها قدمت التاريخ في صورة سهلة ومشوّقة وبلغة جذّابة تحمل القرّاء على متابعة تاريخهم دون مشقة وملل.

ومع ذلك لم تسلم هذه الأعمال الرّوائية من النقد شكلاً ومضموناً، منذلك

ما يذكر ه شوقي أبو خليل في كتابه "جرجي زيدان في الميزان" قائلاً: "ونحن في نقدنا الذي دونّاه لم نكن في موقف من يتصيّد الأخطاء ويغمض عينيه عن الصواب... ولكنّنا كنّا نبحث عن الصواب فلم نجده فاخترنا من الأخطاء بعضها وأهمها، ونحن لا نقول إنّ ما سجلناه هو كل ما يقال عن روايات جرجي زيدان... فمن يفتش يجد طعنات وأخطاء بقدر ما كتبناه وأكثر... ولكننا أردناها لقيمات تتذوقها من طبخة كبيرة طبخها جرجي زيدان من تاريخنا وقدمها للأجيال"[5].

وعلى الرغم من كل ما قيل ويقال فإنّ جرجي زيدان يعدّ الرائد الأوّل لهذا اللّون من الروايات التي تجمع بين التعليم والتسلية والتاريخ. فقد اتخذت رواياته بإجماع الكثير من النقاد منحى تعليمي موافق لمتطلبات واقعه الراهن ومتماشياً مع مشروعه الثقافي النهضوي

كما يتصوره، فقد اعتنى بالعنصر القصصي قدر عنايته بالعنصر التعليمي وإن كان لا يزال العنصر القصصي خادماً للعنصر التعليمي، تماشياً مع اشتغال الجناح الإصلاحي من المثقفين المصريين لتثقيف المصريين وتعليمهم، بتوظيف قالب الرحلة دون الاهتمام بالشكل الروائي.

وقد انعكس هذا الاهتمام بالجانب التعليمي للرواية التاريخية عند جرجي زيدان إلى التأثير على أسلوبه الفني، حيث صنف أعماله ضمن تيار ما بين التعليم والتسمية والترفيه[6]، لذلك يقول بعض النقاد أن رواياته تفتقر إلى اللمحات الفنية ويغلب عليها الطابع التعليمي، وفي هذا الصدد يصرح عمر الدسوقي حسن عن سلسلة زيدان التاريخية هذه السلسلة الطويلة التي تجاوزت العشرين (20) قصة مستمدة من التاريخ الإسلامي مكتوبة كلها بأسلوب صحفي خالية من التّحليل النّفسي والنظريات الفلسفية، وما هي العبرة من إيراد التاريخ في قالب قصصي لم تكتمل شروطه الفنية ولم يحافظ على الحقائق[7]. وفي السياق نفسه يصيف فؤاد دوارة قوله، إنّ زيدان أورد الأحداث التاريخية بصورة مخلة ولم يعن بتقديم صوره قيمة متكاملة للشخصيات الرّئيسية في تلك الحادثة ولم يهتم بشرح خلفياتها السياسية والاجتماعية بالقدر الكافي فضلاً عن إيراده معلومات مشكوك في صحتها دون تمحيص باعتبارها حقائق تاريخية ثابتة[8].

بالطبع إنّ شرط النّقد كان وما يزال حادا على جرجي زيدان أيا كانت منهجيات هذا النّقد، وجرجي زيدان غني عن الدفاع عنه أو تبرير مشروعه السردي في كتابه التاريخ. إنه ظاهرة فنية من ظواهر الثقافة العربية وعلامة فارقة في تاريخ الأدب العربي بالرغم من أن مساعيه في كتابة الرواية متلكئة ومعاقة ومن ثم تكون ولادتها شديدة التلعثم لحظة

ومليئة بالوهم تُرَهَّن المقامة لحظة أخرى وهي في الحالتين بعيدة البعد كلّه عن الشرط الأوروبي الذي سوى روايته.

وأخيراً إنّ النّصوص السردية التي كتبها جرجي زيدان تمثل خير تمثيل رواية التشويق الفني للتاريخ لأنّها تستقرئ تاريخ الماضي أو الحاضر بلغة سهلة معاصرة من خلال الارتكاز على العقدتين: التاريخية والفنية. ولكن يبقى جرجي زيدان مخلصاً ووفياً للحدث التاريخي مع التصرّف في الجانب القصصي والروائي لتحقيق المتعة الفنية والفائدة التاريخية لدى القارئ، في طموح أن تكون رواياته مرجعاً بمنزلة المراجع التاريخية.

خاتمة:

يتبيّن من خلال تتبّع مشروع جرجي زيدان السردي والتاريخي أنّ هذا المفكّر والروائي شكّل حلقة محورية في مسار النهضة الأدبية العربية، رغم الجدل الذي أثير حول أعماله ومناهجه. فقد استطاع أن يقدّم نموذجاً جديداً للكتابة التاريخية، يقوم على إعادة توزيع العلاقة بين المعرفة والفن، بين الماضي والحاضر، بين الوقائع والخيال، بما جعل الرواية التاريخية على يديه جنساً أدبياً قادراً على الإسهام في تشكيل الوعي العام واستنهاض الحسّ الثقافي لدى القارئ العربي. ورغم الانتقادات الكثيرة التي وُجّهت إليه—سواء لركونه أحياناً إلى مصادر استشراقية، أو تركيزه على الفترات المضطربة من التاريخ الإسلامي، أو ضعف بعض عناصر البناء الفني—فإنّ أثره يبقى بارزاً ومؤثراً في تشكيل الوعي الأدبي والتاريخي الحديث.

لقد أراد زيدان من مشروعه أن يكون خدمة للمعرفة التاريخية بقدر ما هو فتح لباب السرد القصصي، فلم يتخذ الفن غاية في ذاته بقدر ما عدّه وسيلة تعليمية وتثقيفية،

تسعى إلى تبسيط التاريخ وتقديمه للمتلقي في قالب مشوّق يسهل استيعابه. وهذا ما جعله يندرج ضمن تيار إصلاحي واسع في مصر آنذاك، هدفه توسيع قاعدة القرّاء ومواجهة الأمية الثقافية عبر توظيف الرواية وسيلة للنهوض الفكري.

وفي ضوء ذلك، يمكن القول إنّ جرجي زيدان، رغم ما شاب أعماله من هنّات، استطاع أن يرسّخ مكانته رائداً للرواية التاريخية العربية ومجدّداً لطرق عرض التاريخ، وأن يخلّف إرثاً أدبياً ومعرفياً غنياً جديراً بالدرس والمراجعة. وتبقى أعماله شاهداً على محاولة مبكرة لإعادة كتابة التاريخ العربي والإسلامي بروح حداثية، وعلى سعيه الحثيث لربط الأجيال بجذورها من خلال السرد، ليظلّ اسمه محفوراً بعمق في ذاكرة الأدب العربي الحديث.

الهوامش:

[1]- غازول فريال جبوري، الرواية والتاريخ، مجلة فصول، مجلد2، ع 2، 1982، ص 295.

[2]- جورجي زيدان، الحجاج بن يوسف، ص 98.

[3]- المرجع نفسه، ص 98.

[4]- شوقي أبو خليل، جورجي زيدان في الميزان، دار الفكر، ط1981، دمشق، ص 109.

[5]- المرجع نفسه، ص 220.

[6]- طه بدر، تطور الرواية الحديثة في مصر 1870- 1938 ، ص 77.

[7]- الصاوي محمود، كتابات جورجي زيدان دراسة تحليلية في ضوء الإسلام، ط1، دار الهداية، 2000، ص 417.

[8]- المرجع نفسه، ص 417.